www.dawahmemo.com

رجال من معارك الإسلام

تأليف

محمد شديد

إمام أهل الرأي

الإمام أبو حنيفة

مؤسسة الرسالة

إمام أهل الرأي
الإمام أبو حنيفة

قامت مدارس الفقه الإسلامي على أسس أربعة: فقه عمر بن الخطاب المبني على المصلحة، وفقه علي بن أبي طالب المبني على الاستنباط والغوص في طلب حقائق الشرع، وفقه عبد الله بن مسعود المبني على التخريج، وفقه عبد الله بن عباس الذي هو علم القرآن وفقهه.

وكانت المدرسة الفقهية التي تخرج فيها أبو حنيفة، امتداداً لفقه عبد الله بن مسعود، فقد بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة، يقول: إني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود مُعلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أهل بدر، فاقتدوا برأيهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي.

واتخذ عبد الله بن مسعود بيته بجوار مسجد الكوفة،

مدرسة الرأي فيما بعد في العراق.

* * *

نشأته:

وُلد أبو حنيفة: النعمان بن ثابت، في الكوفة، في عام ٨٠ هجرية، ونشأ في بيت من بيوت التجارة، إذ كانت أسرته تتجر في الخز، وبعد أن حفظ القرآن في صِغَره، انصرف إلى التجارة مع اهتمام قليل بمجالس العلم، فاسْتَرْعى ذكاؤه المبكر، أنظار العلماء، فنصحوه أن يتجه بكله للعلم لا للتجارة، ويقول أبو حنيفة عن تلك المرحلة من حياته:

مررت يوماً على الشعبي، وهو جالس، فدعاني، فقال لي: إلى من تختلف؟ فقلت: أختلف إلى السوق. فقال لم أعن الإختلاف إلى السوق، عنيت الإختلاف إلى العلماء. فقلت: أنا قليل الإختلاف إلى العلماء، فقال لي: لا تفعل، وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء فإني أرى فيك يقظةً وحركةً.. قال: فوقع في قلبي من قوله، فتركت الإختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم، فنفعني الله تعالى بقوله.. ولم ينصرف أبو حنيفة انصرافاً كاملاً عن التجارة، ولكنه عني بالعلم ومجالس العلماء، مع عمله في التجارة.

نشأ أبو حنيفة في عهد الدولة الأموية، ثم قامت الدولة العباسية، فانتقل مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد، وأصبحت بغداد مركزاً للحركة العلمية، ومسرحاً للفلسفة والعقائد، ومقراً للفِرَق التي تكونت، فيه الشيعة، وفي باديته الخوارج، وفيه المعتزلة، بجوار أهل السنة، كما كان فيه تابعيون مجتهدون، فلا غرو أن يكون العراق في ذلك الحين مسرحاً للجدل، وتضارب الأفكار، والآراء، والبحث في أصول العقائد.

للشيعة فقه خاص، وللخوارج مذاهب يتعصبون لها، ويقاتلون في سبيلها، وللمعتزلة أصول يدعون لها وينافحون عنها، ولعلماء الكلام طرائق في الجدل وإقامة الدليل، والدفاع عن الإسلام بأسلوب علم المنطق والفلسفة، وأهل السنة أو جمهور العلماء، متمسكون بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يستمدون منهما وينهجون نهج السلف الصالح.

وجد أبو حنيفة نفسه وسط هذه الدوّامة الفكرية الصاخبة، فجادل المعتزلة وتعلم ما عندهم، وجادل الخوارج وعرف أفكارهم، ثم جذبه علم الكلام لأنه يتخذ سمت الدفاع عن الإسلام، فسار فيه شوطاً، ثم توقف، ودله عقله الذكيُّ، وفطرته السليمة، وفقهه في الكتاب والسنة، وما

* * *

مدرسة "أبي حنيفة"!

كانت المساجد هي الجامعات الإسلامية التي خرَّجت معظم علماء الإسلام، وكان مسجد الكوفة هو الجامعة التي خرجت الإمام أبي حنيفة، وفي عام ١٢٠ هجرية، تُوُفِّي أستاذه حماد، فأخذ مكانه، وفي هذا المسجد الذي كان يسع أربعين ألفاً، كانت تقوم حلقات كل منها حول أستاذ، بعضها للتفسير أو الحديث أو الفقه، والبعض الآخر للأدب أو الشعر أو الرواية، وكانت حلقة أبي حنيفة أعظم هذه الحلقات.

وتدل أخبار تلك الحلقة التي استمرت ثلاثين عاماً، أنها كانت مدرسةً عظيمةً، أو جامعةً من طراز فريد، وأبو حنيفة هو صاحبها وأستاذها ومُمَوِّلها، وكانت طريقة الدرس فيها هي الحوار، يطرح الإمام المسألة للدرس والبحث، فيقول فيها كل من له رأي من الحضور، وقد يستمر الحوار والمناقشة في المسألة الواحدة أياماً، قد تطول إلى الشهر، حتى إذا انتهت آراء التلاميذ في المسألة الواحدة، قال الإمام فيها رأيه، كأنما ينطق بالحكم في قضية خطيرة، فإذا وافق الجميع رأيه، أثبته أبو يوسف، أحد تلاميذ الحلقة، وانتقل البحث إلى مسألة أخرى.

حرية الرأي في هذه الحلقة مكفولة إلى أبعد الحدود، يَعلو فيها الأصوات، ويحتدم فيها النقاش ويشتد الحوار، فإذا تكلم أبو حنيفة سكت الجميع، كأن على رؤوسهم الطير، وتفتحت الآذان والقلوب كما يقول، وقد مر بالحلقة الإمام مسعر بن كدام وسمع صَخَبَهم، ثم بَصرَ بهم سكوناً عندما أخذ أبو حنيفة في الكلام، فقال مسعر: إن رجلاً، تسكن عنده هذه الأصوات، لعظيم الشأن في الإسلام.

كان أبو حنيفة في حلقته بين تلاميذه، فجاءه شاب فألقى عليه مسألةً، فأجاب فيها الإمام، فقال له الشاب: أخطأت، فسكت الشيخ، ثم ألقى عليه أخرى فأجاب، فقال

الشاب أخطأت يا أبا حنيفة، فقال أحد ضيوف الحلقة لمن حوله: سبحان الله، لا تعظمون هذا الشيخ ولا تبجلونه! يجيء شاب، فيخطئه وأنتم سكوت! فسمعه أبو حنيفه، فقال له: دعهم، فإني قد عَوَّدتهم هذا من نفسي.

ولم يكن أبو حنيفة في مدرسته مجرد أستاذ، إنما كان مربِّياً تجمعه بتلاميذه صلةٌ، وأُخُوَّةٌ صادقةٌ، يسأل عن غائبهم، ويعود مريضهم، ويعين عائلهم، وينفق على فقيرهم، ويتولاهم بالتوجيه والنصيحة، ويُعِدهم ليكون كل منهم خليفته في العلم والفتوى والخلق والسلوك.

قال لتميذه أبي يوسف:.. ولا ترض من العبادات إلا بأكثر مما يفعله غيرك، فإن العامة إذا لم يروا منك الإقبال على الطاعات بأكثر مما يقبلونها، يعتقدون فيك السوء وقلة الرغبة فيها، ويعتقدون أن عملك لا ينفعك ولا يفيدك، إلا ما أفادهم الجهل الذي فيهم، وكن من الناس على حذر، وكن لله في سرك كما أنت له في علانيتك، فلا يصلح أمر العلم إلا أن تجعل سِرَّه كعلانيته.

وقال لتلميذه يوسف السمتي، قبل سفره إلى البصرة:.. ومن مرض من إخوانك، فعده بنفسك وتعاهده برسلك، ومن تكلم فيك بالقبيح، فتكلم فيه بالحسن والجميل.. وإياك والحقد، وإن غدروا بك، وأدِّ الأمانة وإن خانوك.

ومما يبين عن حقيقة علاقة أبي حنيفة بتلاميذه، ما قاله يوماً لأبي يوسف: وأقبل على تلاميذك، كأنك اتَّخذت كل واحد منهم ابناً وولداً، لتزيدهم رغبةً في العلم.

رأى أبو حنيفة ذات يوم على أحد تلاميذ حلقته ثياباً رَثَّة، فطلب منه أن يبقى بعد الدرس، حتى إذا صار الرجل وحده، قال له: ارفع المُصلَّى، وخذ ما تحته.. فرفع الرجل المصلى، فكان تحته ألف درهم، قال: خذ هذه الدراهم فغير بها من حالك. قال الرجل: إني لست أحتاج إليها، وأنا موسر.

فقال أبو حنيفة: أما بلغك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ اللهَ يُحب أن يَرىٰ أثَرَ نِعْمَتِه على عَبْدِه».. فينبغي أن تُغَيِّر حالك، حتى لا يغتم لك الصديق.

وكان أبو يوسف من أنجب تلاميذ أبي حنيفة، وكان يعمل خياطاً في صباه، وقد تعهده أبو حنيفة عشرين سنةً، يُعلِّمه ويُربِّيه وينفق عليه، حتى بلغ أعظم مناصب الدولة، وأصبح أُستاذاً لهارون الرشيد.

ويذكر أبو يوسف تلك الفترة من حياته، بعد أن بلغ قمة المجد، فيقول: كنت أطلب الحديث والفقه عند أبي حنيفة وأنا فقير، فجاءني أبي، وأمرني لأنصرف لطلب

المعاش، فآثرت طاعته، فسأل عني أبو حنيفة، فذهبت إليه، فسألني: ما شغلك عنّا؟ قلت: طلبُ المعاش، وطاعةُ أبي. فتَعَهّدني، فكان يعولني وعيالي عشرين سنةً.

سأل هارون الرشيد عن أبي حنيفة تلميذه أبا يوسف، فقال:

«قال تعالى: مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ كان علمي به أنه شديد الذود عن المحارم، شديد الورع أن ينطق في دين الله بلا علم، يحب أن يُطاع اللهُ تعالى، ولا يُنافِس أهل الدنيا فيما في أيديهم، طويل الصمت، دائم الفكر، مع علم واسع، ولم يكن مِهْذاراً ولا ثَرْثاراً.. إن سُئل عن مسألة كان له علم بها، أجاب، وإلا قاس، مُستغنياً عن الناس، لا يميل إلى طمع، ولا يذكر الناس إلا الخير.

فقال الرشيد: هذه أخلاق الصالحين. وأمر الكاتب، فكتبها، ثم أعطاها لإبنه وقال: احفظها.

وفي عام ١٨٣ هجرية مات أبو يوسف، وسُمع وهو على فراش الموت، يقول:

اللهم إنك تعلم، أنني لم أجُرْ في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تَعمُّداً، وقد اجتهدت في الحكم بما يوافق

كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم، وكلما أشكل علي، جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك، ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه.. ومات أبو يوسف، وقد أوصى بمعظم ثروته للفقراء.

وأبو يوسف أحد نماذج تلاميذ أبي حنيفة، وأحد الذين دَوَّنوا مذهبه وآراءه، ومَكَّنوا لها في الدولة، وَحَسْبُ أبي حنيفة أن جعل من صبيّ الخياط عالماً، أستاذاً لهارون الرشيد.. ذلك رجل كان خبيراً في صنع الرجال.

* * *

منهجُه في الفقه:

سأل أبو جعفر المنصور أبا حنيفة عن منهجه في الفقه، والأصول التي اسْتَقَى منها علمه، فقال: يا نعمان، عمن أخذت العلم؟

فقال أبو حنيفة: عن أصحاب عمر بن الخطاب، وعن أصحاب علي بن أبي طالب، وعن أصحاب عبد الله بن مسعود، وما كان في وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه.

فقال أبو جعفر: لقد استوثقت لنفسك.

ويعني هذا: أن أبا حنيفة درس جميع الأسس التي قام

عليها الفقه الإسلامي، فهي لا تعدو هذه الأربعة، ثم وفقه الله تعالى إلى المنهج الذي يتفق مع فكره وتكوينه وفطرته.

سُئل أبو حنيفة عن منهجه في الفقه، فقال: آخذ بكتاب الله، فما لم أجد فيه، أخذت بسُنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا لم أجد، أخذت بقول أصحابه مَنْ شئتُ وأدع مَنْ شئت، ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى من بعدهم من التابعين، فلي أن أجتهد كما اجتهدوا.. إذا كان التابعي رجلاً، فأنا رجل.

الإجتهاد بالرأي فيما ليس فيه نص أو إجماع من الصحابة، ذلك هو منهج أبي حنيفة في البحث والدراسة، وأساس مذهبه في الفقه.

وأبو حنيفة في هذا، ليس مبتدعاً، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجتهد رأيَه، ويربّي أصحابه على التفكير والإجتهاد فيما ليس فيه نص من قرآن أو سنته، وظل الإجتهاد أصلاً من أصول التشريع الإسلامي، قروناً عدةً، فالإسلام لا يعرف التخلف عن حاجات الحياة المتجددة، كما لا يقر الجمود أو التقليد. ولم يُقفَل بابُ الإجتهاد، إلا في العصور التي بَعُدَ فيها المسلمون عن أصول الإسلام.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن قاضياً، فسأله وهو يُوَدِّعه:

- بما تقضي يا معاذ؟

- بكتاب الله.

- فإن لم تجد؟

- بسُنَّةِ رسول الله.

- فإن لم تجد؟

- أجتهد رأيي.

- فقال صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسول الله إلى ما يحب الله ورسوله.

ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسَّيْر لقتال يهود بني قريظة، قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يُصلِّيَنَّ العصر إلا في بني قريظة.

وأدركهم العصر في الطريق، فصلاه جماعة منهم لوقته في الطريق، وقالوا: إنما أراد النبي الإسراع، وصلاَّه فريق آخر بعد وقته، بعد وصولهم، تنفيذاً لنص الأمر.

ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بأمرهما، لم ينكر على أحد الفريقين عمله.

* * *

ولما فتح المسلمون الأمصار، طالب الفاتحون عمر بن الخطاب بأربعة أخماس الغنيمة، ومنها الأراضي المفتوحة، مُستندين في ذلك إلى ظاهر نص القرآن الكريم. فرفض عمر وقال: كيف آخذ أرض الناس منهم؟ فقالوا له: هذا ما أفاء الله علينا بأسيافنا، أفتحرمنا حقنا الذي أعطانا القرآن؟

فجمع عمر مجلس شوراه من الصحابة، وقال لهم: قد سمعتم قول هؤلاء الذين زعموا أني أظلمهم حقهم.. أرأيتم هذه الثغور التي لا بد لها من رجال يلزمونها، لا بد لها من الجيوش والعطاء. فمن أين يعطى هؤلاء؟

فأجمعوا على رأي عمر، فأمضاه.

ويقول أبو يوسف في ذلك: والذي رأى عمر، كان توفيقاً من الله، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين، وفيما رآه من جمع الخراج وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم.

* * *

وجاء حاطب يتهم غلمانه بسرقة ناقته، واعترف الغلمان بالسرقة، وإلى هنا كان لا بد من تنفيذ حد السرقة، أي: عقوبتها، وهي قطع اليد، فلما علم عمر أن صاحب الناقة لم يُعْطِ غلمانه أجورهم، حتى جاعوا، قالوا له: أما سمعت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعطوا العامل أجره

قبل أن يَجِفَّ عرقه..؟ ولم يُقِم حد السرقة، إنما غرم صاحب العمل، لأنه أُجاع غلمانه.

* * *

وبهذا الفهم الكامل لكليات الإسلام، والإدراك الصحيح لمقاصده، والتحقيق الواعي لأهدافه، والتفكير السليم على أساس المصلحة، قام فقه أبي حنيفة، وجعل منه منهجه.

* * *

الحُرِّية أعظم من المال:

ومن أعظم ما يلفت النظر في فقه أبي حنيفه، هو العمل على تحقيق الحرية الشخصية، والحفاظ على كرامة الإنسان، ولقد خالف الأئمة في بعض الآراء لأنه راعى فيها هذا الأصل: حرية الإنسان، هي أعظم مقومات إنسانيته.

ومن نماذج ذلك الإتجاه، أن جمهور العلماء أجمعوا على الحجر على السفيه، وعلى ذي الغفلة الذي لا يُحسن القيام على ماله، أما أبو حنيفة، فيرى أن البالغ العاقل ليس لأحد أن يحجر عليه، بحجة المحافظة على ماله، لأنه ينفقه سَفَهاً، أو لا يُحسن استغلاله غفلةً، فليس لأحد عليه سبيل، فالحرية أغلى من المال، فكيف نسلب منه حريته للحفاظ على ماله؟

كما اتفق جمهور الفقهاء على عدم إجبار الفتاة البالغة العاقلة على زواج من لا تريده. ولكنهم اختلفوا مع أبي حنيفة، فهم يَرَوْن أن وليها لا يرغمها على الزواج، وهي أيضاً لا تستطيع أن تتزوج من غير إرادته، وأن عبارتها لا تصلح لإنشاء عقد الزواج، بل وليها هو الذي يتولى صيغة العقد، ولكن أبا حنيفة يخالفهم جميعاً، وانفرد وحده بهذا الرأي الذي يعطي الفتاة الولاية الكاملة في شأن الزواج، أي أنها تستطيع أن تتولى بنفسها صيغة العقد، وحجته في ذلك: أن الإسلام يعطي الفتاة الولاية الكاملة على أموالها، فتجعل لها شخصيةً ماليةً مستقلةً، وحرية الفتاة في الزواج، أعلى وأعظم من حريتها في إدارة أموالها، فيجب أن تُثبت لها أيضاً ولاية الزواج كاملة، وليس للوالد أو الولي أن يسلبها هذا الحق.

ويستند أبو حنيفة في رأيه، إلى ما رُوي في الصحيح، من أن فتاة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أبي زَوَّجني من ابن أخيه، ليرفع بي خسيسته، فجعل الأمر إليها، فقالت: قد أجزت ما صنع أبي، ولكني أردت أن أُعلم النساء أنه ليس إلى الآباء من شيء.

* * * * *

ورعه وتقواه:

كان إيمان أبي حنيفة وورعه وتقواه وصلته بربه، هي أبرز جوانب شخصيته وسر قوته، وزهده في مباهج الحياة الدنيا ومظاهرها. ولقد بلغ من زهده أنه كان ينفق الآلاف من ماله على طلبة العلم والفقراء، ويوسع على المحتاجين، وقوته لا يزيد على درهمين في الشهر.

وكان من ورعه، أنه رفض القضاء في عهد دولة بني أمية، كما رفض في عهد الدولة العباسية، وتحمل الضرب والسجن من جراء هذا الرفض.

زارته أمه في السجن، وقالت له: يا نعمان، إن علماً، ما أفادك غير الضرب والحبس، لحقيق بك أن تنفر عنه. فقال لها: يا أماه، لو أردت الدنيا لوصلت إليها، ولكني أردت أن يعلم الله أني صُنْتُ العلم، ولم أعرض نفسي فيه للهلكة.

ودخل سجن المنصور، فلم يقبل أن يأكل من طعام الدولة، وبعث إلى ابنه حماد، يقول: قد علمت أن قُوتي في الشهر درهمان من سُوَيق، وقد حبستَه عني فعجله، ثم تُوفي بعدها بأيام، وأوصى ألاّ يُدفن في مقابر في أرض مغصوبة، ولا في مقابر الخليفة، فقال المنصور لما بلغه ذلك: من يعذرني من أبي حنيفة حيّاً ومَيتاً!!

قيل له يوماً: اتّق الله. فانتفض وطأطأ رأسه، ثم قال: يا أخي، جزاك الله خيراً، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى، وقت إعجابهم بما يظهر على السنتهم من العلم، حتى يريدوا الله بأعمالهم.

وكان يألم حين يشكره أحد على شيء أعطاه إياه، ويقول له: أشكر الله تعالى. فإنما هو رزق ساقه الله إليك.

وينفق على تلاميذه، ويشتري لهم حوائجهم، ويعطيهم ما يعولهم، قائلاً: انفقوا في حوائجكم، ولا تحمدوا إلا الله سبحانه وتعالى. فإنها أرباح بضائعكم مما يجريه الله تعالى لكم على يدي.

قال له أحد إخوانه، لما رأى من زهده وتفريقه جميع أمواله: لك عيال يا أبا حنيفة: فقال: الله تعالى للعيال. وإنما قُوتي أنا في الشهر درهمان.

وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ

وأُهدي إليه يوماً ألف نعل، ففرّقها على إخوانه، ورُئي بعد ذلك بيومين يشتري لولده نعلاً، فلما سُئل عن ذلك، قال: إن مذهبي في الهدايا، تقويمها بالغةً ما بلغت، والمكافأة. بمثلها أو مثل ضعفها، وتفريق الهدية بين إخواني.. وإنما أقبل الهدية لما رُوي من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان

يقبل الهدية، ويجيب الدعوة.. وأرى المكافأة بأحسن منها لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

وشَجَر شِقاق بين الخليفة أبي جعفر المنصور وبين زوجتَه، فسألها المنصور عمن ترضى حَكَماً في هذه الخصومة. قالت: بأبي حنيفة، وجاء أبو حنيفة، وجلست زوجة الخليفة وراء الستر، قال أبو حنيفة: فليتكلم أمير المؤمنين.

قال المنصور: إنها تخاصمني. كم يحل للرجل أن يتزوج من النساء ليجمع بينهن؟

قال أبو حنيفة: أربع.

فقال الخليفة: اسمعي يا هذه.

فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين، أحل الله هذا لأهل العدل، فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل، فينبغي ألا يجاوز الواحدة. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فينبغي أن تتأدب بأدب الله تعالى فتتّعِظ بمواعظه.

وخرج أبو حنيفة، فلما بلغ منزله جاءه رسول زوجة المنصور بهدية، لأنه نصرها وأدّب المنصور، وكانت الهدية خمسين ألفاً وجارية ودابّة.

فقال له أبو حنيفة: أقرئها سلامي، وقل لها: إنما ناضلت عن ديني. وردّ هديتها إليها.

وقيل بعدها لأبي حنيفة: هلاّ قبلت الهدية وتصدقت بها؟

فقال: وهل عند أولئك مال حلال!

قال المنصور لأبي حنيفة: لم لا تقبل ما أبعث إليك من صِلاتٍ؟

قال أبو حنيفة: إن أمير المؤمنين لم يبعث إلي من ماله الخاص. إنما وصلني من بيت مال المسلمين، ولا حق لي في بيت مالهم، فلست ممن يقاتل في سبيل الله، فآخذ ما يأخذ المقاتل، ولست من ولْدانهم، فآخذ ما يأخذه الولْدان. ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذ الفقير.

* * *

العابد:

كان أبو حنيفة عابداً زاهداً، يفوق كثيراً ممن تجردوا للزهد والعبادة. مع نشاطه الكبير وعمله الدائب في العلم والتجارة.

قال عنه أستاذه حماد لجاره: هذا على ما ترى منه، يقوم الليل كله ويُحييه، وقيل: إنه صلى الفجر بوُضوء العشاء أربعين عاماً، أي أنه لم يَذُق طعم النوم بين العشاء والفجر طوال تلك السنوات.

ومتى خلصت النية، وابتغى المؤمن بعمله وجه الله تعالى، متجرِّداً صادقاً، كانت كل أعماله وحركاته وأقواله عبادةً، وكذلك كان أبو حنيفة، جَعَل بإيمانه وتقواه وتجرده لله عز وجل من مجالس العلم والتجارة محراباً للعبادة، فأصبحت حياته كلها عبادةً خالصةً، كأنها سجدة طويلة بين يدي الله تعالى:

وكان له في قيامه بالليل فقه خاص، فكان يبدأ قيام الليل بأن يَلْبَس أفخر ثيابه ويتطيب، فإذا قيل له: إنما يفعل الناس ذلك إذا دخلوا على سلطان، وكانوا في مجتمع كبير، قال: التَّزين لله عز وجل، أولى من التَّزين للناس.

* * *

حِلْمه وتواضعه:

كان أبو حنيفة عالماً سَمْحاً، واسع الأفق، عظيم الأناة والحِلْم، بعيداً كل البعد عن التعصب لرأيه وعلمه، أو الغضب لنفسه، فكان يقول: قولنا هذا رأي، وهو أحسن ما

قَدِرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا، فهو أولى بالصواب منا.

وسُئل: يا أبا حنيفة، هذا الذي تفتي به، هو الحق الذي لا شك فيه؟

فقال: لا أدري. لعله الباطل الذي لا شك فيه؟

وقال تلميذه زفر: كنا نختلف إلى أبي حنيفة ومعنا أبو يوسف، فكنا نكتب عنه، فقال لأبي يوسف: ويحك يا يعقوب، لا تكتب ما تسمعه مني، فإني قد أرى الرأي اليوم، فأتركه غداً، وأرى الرأي غداً، فأتركه بعد غد.

وكان في مجالس علمه، مالكاً لنفسه، عظيم الحِلْم، لا يغضب على من خالفه في الرأي أو أهانه.

كان في مجلسه يوماً، فقال رأياً يُخَطِّىء الحسن البصريَّ، والحسن في ذلك الوقت صاحب مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، فقال له أحد الحاضرين: أنت تخطِّىء الحسن البصري، ثم قال له قولةً منكرةً.

فاستمر أبو حنيفة في حديثه هادئاً، كأنما لم يسمع هذه الإهانة البالغة، وقال: أي والله، أخطأ الحسن البصري، وأصاب عبد الله بن مسعود. ثم قال: اللهم من ضاق بنا صدره، فإن قلوبنا قد اتسعت له.

وفي مرة قال له أحد مناظريه: يا زنديق يا مبتدع.

فقال أبو حنيفة في هدوء: غفر الله لك. الله يعلم مني غير ذلك، وإني ما عدلت به منذ عرفته، ولا أرجو إلا عَفْوه، ولا أخاف إلا عقابه. ثم بكى أبو حنيفة عند ذكر عقاب الله.

فقال له الرجل: اجعلني في حِلٍّ مما قلت.. فقال له: أنت في حِلٍّ.

* * *

مع الخوارج:

كان أبو حنيفة حاضر البديهة قوي الحجة، قال عنه الإمام الليث بن سعد، فقيه مصر: كنت أتمنى أن أرى أبا حنيفة، حتى رأيت الناس ملتفِّين حول شيخ، فقال رجل: يا أبا حنيفة، فسأله عن مسألة، فوالله ما أعجبني صوابه، كما أعجبتني سرعة جوابه.

دخل عليه بالمسجد الضحاك بن قيس، أحد زعماء الخوارج، في جماعة من أصحابه، وكان الخوارج يقتلون مخالفيهم في الرأي، وكان أبو حنيفة ممن يخالفهم، ويُفتي بفساد رأيهم في بعض معتقداتهم وسلوكهم، فقال له الضحاك: تُبْ يا أبا حنيفة. فقال: مِمَّ أتوب؟ فقال الضحاك: من تَجْويزك التحكيم. يعني التحكيم بين علي بن أبي طالب،

ومعاوية بن أبي سفيان، في معركة صفين. وهم يعتبرون قبول عليٍّ للتحكيم كفراً، خرجوا بسببه عليه، وأعلنوا عليه الحرب.. فقال أبو حنيفة: تقتلني أو تناظرني؟ قال الضحاك: بل أناظرك.

قال أبو حنيفة: فإن اختلفنا في شيء، فمن يكون بيني وبينك؟

قال الضحاك: اجعل أنت مَنْ شئت.

فقال أبو حنيفة لرجل من أصحاب الخارجي: اقعد، فاحكم بيننا فيما نختلف فيه إن اختلفنا. ثم قال للضحّاك: أترضى بهذا بيني وبينك؟

قال الضحاك: نعم.

فقال أبو حنيفة: فأنت بهذا قد جَوَّزت التحكيم.

فَبُهِت الخوارجُ، ولم يستطيعوا جواباً وخرجوا.

* * *

وكان الخوارج يقولون بكفر مرتكب الكبيرة. وكان أبو حنيفة يفتي بخلاف هذا الرأي. فدخلت عليه طائفة منهم، وهو بالمسجد، شاهرين السيوف، وقالوا: يا أبا حنيفة، نسألك عن مسألتين، فإن أجبت نَجَوْتَ، وإلا قتلناك. قال: اغمِدوا سيوفكم، فإن برؤيتها ينشَغِل قلبي. قالوا: كيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر الجزيل لإغمادها في رقبتك.

قال: سَلُوا إذن.

قالوا: جنازتان بالباب، إحداهما رجل شرب الخمر فمات سكران، والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة. أهما مؤمنان أم كافران؟

فسألهم أبو حنيفة: من أي فرقة كانا، من اليهود؟ قالوا: لا، قال: من النصارى؟ قالوا: لا. قال: من المجوس؟ قالوا: لا. قال: ممّن كانا إذن؟ قالوا: من المسلمين.

قال: قد أجبتم.

قالوا: هما في الجنة أم في النار؟

قال: أقول فيهما ما قال الخليل عليه السلام، فيمن هو شر منهما.

فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

وأقول كما قال عيسى عليه السلام:

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

فنكسوا الرؤوس، وانصرفوا.

وكان أبو حنيفة مع بعض إخوانه في رحلة خارج الكوفة، فقابلهم بعض الخوارج في الطريق، فتعرّضوا لهم، وسألوهم: مَنْ أنتم؟

وكان أبو حنيفة يعلم أن الخوارج على فقه في الدين وتقوىً، ولكنهم قوم أعماهم التعصب لآرائهم، حتى أفسد عليهم حياتهم، ودفعهم إلى قتل مخالفيهم. وإن هو أعلن لهم عن نفسه وإخوانه، فسوف يتعرضون للقتل. فقال لهم: نحن قوم مستجيرون.. يعني الآية الكريمة:

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ

فقال كبيرهم: اسمعوهم كلام الله، ثم ابلغوهم مأمنهم.

وبهذا الفقه، وسُرْعة البديهة، نَجَا أبو حنيفة وإخوانه من سيوف الخوارج.

* * *

موقفه من مناصب الدولة:

كان التصور الإسلامي للحكم ما يزال صافياً، عميقاً في الرأي العام الإسلامي في عصر التابعين، وكانت دولة بني

أمية، ثم دولة بني العباس قد أحدثتا انحرافاً خطيراً عن ذلك التصور، وقد وقف كثير من العلماء، موقف الرفض والمعارضة لهذا الانحراف.

وكان أبو حنيفة ممثلاً لهذا الموقف أصدق تمثيل، فرفض صلات الخلفاء، لأنه يرى فيها أموالاً مغصوبة، ليس للخلفاء حق التصرف فيها، لأنها أموال بيت المسلمين وليست أموالهم الخاصة، وكان يعلن هذا الرأي حتى في وجه الخلفاء، كما قال لأبي جعفر المنصور، كما رفض ما عرضوه عليه من مناصب الدولة، لأنه رأى في قبوله، مشاركةً في المظالم، وانحرافاً عن نهج الإسلام في الحكم.

في عهد بني أمية، لمّا قويت الدعوة العباسية، وأحسَّ الأمويون بالخطر على دولتهم، وبالأرض تَميدُ من تحت أقدامهم، حاولوا أن يسندوا الدولة بكبار العلماء، ليجعلوا لها سنداً شعبياً، فبعث عامل بني أمية ابن هبيرة بأمر الخليفة، إلى أئمة فقهاء العراق: ابن أبي ليلى، وابن شبرمة، وداود بن هند، فولّى كل واحد منهم عملاً من أعمال الدولة، ثم بعث إلى أبي حنيفة، وعرض عليه منصب صاحب الختم، وهو من أعظم مناصب الدولة، فلا يتم أمر فيها إلا بإذنه، ولا يُصرَف مالٌ إلا بأمره، فرفض أبو

حنيفة، فحلَف ابن هبيرة لَيَضْرِبَنَّه إن لم يقبل، فأصر أبو حنيفة على الرفض.

وأخذ الفقهاء يُلحُّون على أبي حنيفة أن يقبل، وقالوا له: إننا نَنْشُدك الله أن تهلك نفسك، وإنا إخوانك، وكلنا كاره لهذا الأمر، ولم نجد بُدّاً من القبول.

فقال أبو حنيفة: لو أرادني أن أَعُدَّ له أبواب المسجد، لم أقبل، فكيف وهو يريد مني أن أكون مسئولاً عن سَفْك دماء الناس، وإنفاق أموالهم بالباطل، واللهِ لا أدخل في ذلك أبداً.

ولجأ ابن هبيرة إلى العنف، فقبض على أبي حنيفة، وأدخله السجن، وأمر بتعذيبه حتى أشرف على الهلاك، وهو صابر مصر على الرفض. ولما خاف الوالي أن يموت الإمام في سجنه، فتكون سُبَّةَ الدولة الأُموية، أطلق سراحه.. فذهب أبو حنيفة إلى مكة، وآوى إلى بيت الله الحرام آمناً، حتى سقطت دولة بني أمية.

وفي عهد الدولة العباسية، تكررت المأساة، فقد دعا الخليفة أبو جعفر المنصور أبا حنيفة، ليتولى منصب رئيس قضاة الدولة، فرفض، فسأله الخليفة عن سبب رفضه، فقال:

لا يصلح لهذا المنصب إلا رجل يملك الحكم على أمير المؤمنين وأقاربه وقُوّاده، وليس لي ذلك الحق.

فقال المنصور: فَلِمَ لا تقبل ما أبعث اليك من صلات؟

قال أبو حنيفة: إن أمير المؤمنين لم يبعث إلي من ماله الخاص، إنما وصلني من بيت مال المسلمين، ولا حق لي في بيت مالهم.

وعاد المنصور يُلح على أبي حنيفة في قبول منصب القضاء، وأصر هو على الرفض، فأقسم عليه المنصور، وحلف هو بدوره الا يقبل، وبلغ الموقف بينهما غاية الحَرَج، فقال رجال المنصور لأبي حنيفة: أتريد لأمير المؤمنين أن يَحْنُث في قسمه؟! فقال لهم: لقد حلفت بدوري، وأمير المؤمنين أقدر مني على كفارة اليمين.. فلجأ المنصور إلى سلاح التهديد. فقال له أبو حنيفة: لو هدّدتني أن تُغرقني في الفرات، أو أنْ أليَ الحكم، لأخترت أن أغرق.

فأمر المنصور بسجنه وتعذيبه وضربه كل يوم عشرة أسواط، فتحمل أبو حنيفة ولم يقبل. فعدل المنصور عن عرضه الأول، وبعث إليه أن يكون منصبه، قاصراً على مراجعة أحكام القضاة فلم يقبل.

وطالت فترة السجن والتعذيب بأبي حنيفة، فتحمّلها في صبر الرجال وعزيمة الأبطال.. ولم يألم لشيء، ألمه لبكاء أمه، فقد زارته في السجن، فلما رأت عليه آثار التعذيب، بكت، وقالت: يا ولدي، ما خير علم يضيعك هذا الضياع؟

فقال لها: يا أماه. إنهم يريدونني على الدنيا، وإنني أريد الآخرة.. وإنني أختار عذابهم على عذاب الله تعالى.. ثم قال لجاره في السجن: والله ما أوجعتني السياط، قدر ما آلمتني دموعها.

* * *

ونقف وقفةً قصيرةً، مع قول أبي حنيفة للمنصور: لا يصلح لهذا المنصب- قاضي القضاة-، إلا رجل يملك الحكم على أمير المؤمنين، وأقاربه وقُوّاده، وليس لي ذلك الحق.

وذلك هو تصور أبي حنيفة للقضاء في الإسلام ونسوق مثلين لهذا القضاء:

الأول: ما رُوي من أن حدّ السَّرقة، وجب على فاطمة المخزومية. فقال بنو مخزوم: من يشفع لها؟ قالوا: أسامة بن زيد حِب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذهب أسامة إلى النبي يشفع فيها، حتى لا يُقام عليها الحد، لأنها تنتمي إلى بطن من أشرف بطون قريش، وفي إقامة الحد عليها عار

عليهم. فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وانتهر أسامة قائلاً: أتشفع في حد من حدود الله؟ وجمع المسلمين فخطبهم فقال:

«إنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها».

* * *

والمثل الثاني: أن امير المؤمنين علي بن أبي طالب. وجد دِرْعَه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح، قاضيه، يخاصمه مخاصمة الرجل من عامة رعاياه، وقال: انها درعي، ولم أبع ولم أهب.

فسأل شريح النصرانيَّ: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟

قال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب.

فالتفت شريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين، هل من بينة؟

فضحك علي، وقال: أصاب شريح. ما لي بينة.

فقضى بالدرع للنصراني، فأخذها ومشى، وأمير المؤمنين ينظر إليه.

إلا أن النصراني لم يخط خطوات، حتى عاد يقول: أما

أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي عليه.. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين، فخرجت من بعيرك الأورق.

فقال علي: أما إذ أسلمت، فهي لك.

وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك، وهو من أصدق الجند بلاءً في قتال الخوارج يوم النهروان.

* * *

التاجر:

قد يكون من غير المألوف، وبخاصة في عصرنا هذا أن يجمع مثل الإمام بين العلم والتجارة، وألا يتفرغ تفرغاً كاملاً للعلم. ولكن الذي نعتبره في عصرنا غير مألوف، كان هو الواقع في عصر الإمام، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب:

أحدها: أن كثيراً من علماء السلف، كانوا يرفضون أموال السلطان، ولا يقبلون وظائف الدولة، فمن أين يكون معاشهم، إن لم يحترفوا حِرْفةً بجانب نشاطهم العلمي؟

ثم إن عصر الإمام، لم يعرف احتراف العلماء بمعنى أن إمامة الصلاة ودروس العلم في المساجد، كانت حسبةً يقوم بها

العلماء لوجه الله تعالى، لا يتقاضون عليها أجراً، أي أنها لم تكن وظيفةً، تُديرها وتنفق عليها الدولة.

وثالث الأسباب: أن هؤلاء العلماء، كانوا يَرَوْن أن عليهم أن يقوموا بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكيف يمكن أن يقوموا بهذه الفريضة مع رجال الدولة، إن لم يكونوا أحراراً لا يدينون لهم بمعروف، ولا يعيشون على ما يتقاضونه منهم من أموال.

ورابعاً: أن هؤلاء العلماء، كانوا يرون أنهم ورثة الأنبياء، فكيف يمكن ان يحافظوا على هذه المكانة، وهم مُكبَلون بقيود الوظيفة، أو مُسَخَّرون لأمر السلطان!!

هناك أئمة تَقْرأ لهم، ونَمُرّ بأسمائهم فلا نتوقف عندها، مثل الحصاف والكرابيس والقفال والجصاص، ونظن هذه الأسماء لأُسَرهم، في حين أنهم نُسِبوا إلى الحرف التي كانوا يحترفونها، فالإمام الخصاف: أحمد بن عمر. كان عالماً جليلاً، يؤلف كتبه العظيمة في الفقه، وهو يعمل في خصف النعال. والكرابيس كذلك، كانت مهنته بيع الثياب الخام. والإمام القفال: كانت مهنته صنع الأقفال، وكان يُرى في مجالس العلم والفتوى، وآثار صناعته ظاهرة على يديه. وأما الإمام الجصاص: فكان شيخ زمانه، وهو يعمل في الجص.

أولئك رجال صانوا كرامة العلم، وسَمَوا بأنفسهم أن تخضع لغير الله وارتفعوا بقيمة العمل مهما كانت مظاهره في أعين الناس. لم يرتفعوا لقمة العمل فكرياً بالدعوة والوعظ، إنما ارتفعوا بها عملياً، بالممارسة في واقع الحياة. وقدّموا للدنيا عملياً رأي الإسلام في العمل، وقدّموا الدليل العملي على أنه ليس هناك عمل رفيع وعمل خسيس، إنما هناك إنسان رفيع بإيمانه وخُلُقه وعلمه وتَحَرّيه الحلال، وهناك إنسان خسيس بنفاقه وسوء خلقه وأكله أموال الناس بالباطل، مهما تَرَبَّع على أكبر المناصب، وحمل أكبر الألقاب.

لقد كان الخلفاء يتقرّبون إلى هؤلاء العلماء، ويَتَمَنَّوْن رضاهم، ويبعثون اليهم بالأموال الطائلة، فلا يقبلونها، ويقول احدهم لرسول الخليفة: قل لمولاك ان يضعها من حيثُ أخذها، فهي أموال المسلمين، فيها حق اليتيم والأرملة والفقير وابن السبيل والمسكين.

* * *

والإمام أبو حنيفة، كان من أولئك العلماء، فقد كان تاجراً صاحب تجارة واسعة، اشبه بالبيوت التجارية الكبيرة، ولقد بلغ من ازدهار تجارته، وكثرة أمواله، أنَّ بعض أعدائه دَسَّ له عند أبي جعفر المنصور أن أموال ابي

حنيفة، تُستعمل في تقوية الخارجين على دولته. وقد كان مثلاً للتاجر الصَّدُوق، ونَمُوذجاً للغنيّ الشاكر، الذي ينفق أمواله في أوجه الخير.

يقول عنه شريكه حفص بن عبدالرحمن، الذي شاركه في التجارة ثلاثين عاماً، وكان صالحاً رَوَى عن أبي حنيفة الحديث والفقه، يقول: جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والزهاد والنساك وأهل الورع، فلم أر أحداً أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة.

ويقول: في طول ما صحبت أبا حنيفة وخالطته، لم أره يعلن بخلاف ما يُسِرّ ولم أر أحداً يتوقّى عما لا خطر منه مثلما كان. إذا دخلت عليه شبهة من شيء أخرج من قلبه ذلك، ولو بجميع ماله.

وأخبار إنفاقه وبذله للمال كثيرة، ويكفي أن نذكر قوله: ما ملكت اكثر من أربعة آلاف درهم، منذ اكثر من أربعين سنةً، إلا أخرجته، وإنما أُمسكها لقول علي بن أبي طالب: أربعة آلاف فما دونها نفقة.. ولولا إني أخاف ان ألجأ إلى هؤلاء- يعني الخلفاء والحكام. ما تركت منها درهماً واحداً.

* * *

في عام ١٥٠ هجرية أحسَّ أبو حنيفة بالموت فَسَجد، وصَعِدت روحه وهو ساجد بين يدي الله تعالى.

وقام الحسن بن عمارة يُغَسِّله ولما فرغ قال:

رحمك الله، لم تفطر منذ ثلاثين سنةً، ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنةً، كنت أفقهنا وأعبدنا وأجمعنا لخصال الخير، وقبرت إذ قبرت إلى خير وسنة، وأتعَبْت من بعدك.

* * *